

القرآن يبعث خشية الله في الروح



(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَضَّرِبُهَا لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (الحشر/ 21). إذا كان الله يريد للإنسان أن يذكره ليذكر نفسه، وأن يتقيه ليحصل على رضوانه في جنّته، فإن القرآن هو الذي يتولّى المهمة في توعية الفكر والروح، فهو يطوف بالإنسان في رحاب آيات الله ومواقع عظمتة، وفي آفاق المسؤولية في إطاعة أوامره ونواهيه، فالله أراد للإنسان الاستفادة من كلِّ مفردات الطبيعة الكونية وسننها الإلهية، في إقامة نظام الحياة على أساس الحقِّ، وحثَّ على إظهار مشاعر الخشوع والرغبة والخضوع أمامه، ممّا ينساب في الإحساس، وينفذ إلى العقل، ويلامس الكيان كلّهُ بمواقع الذكرى التي تبتعد به عن الغفلة، ممّا يمكن له أن يصوغ الإنسان صياغةً جديدة حتى يكون عبد الله، وإنسان المسؤولية الباحثة أبداً عن طاعته والهاربة كلياً من معصيته.

وهكذا يريد الله أن يوجه اهتمام الإنسان إلى هذا القرآن ليقرأه ويتدبّره ويعيش مع مفاهيمه المتحركة في مضمون آياته، ليرى فيها ربه، ويتعرف إلى نفسه وإلى الحياة من حوله، ويعي دوره الكبير في خلافة الله في الأرض، فلا ينظر إليه ككتاب تتحرّك فيه الكلمات حسب المعاني اللغوية في كُتُب اللغة، بل يعيش معانيه من خلال الآفاق التي تنطلق إليها الروح في عمق الإيمان، فكان المثل الذي يوضح الصورة هو السبيل إلى إيجاد التأثير العميق الذي يمكن للقرآن أن يتركه في وجدان الإنسان الروحي.

وهذه بعض الآيات الكريمة التي تبعث الخشية: (اعْلَمُوا أَنَّهُ أَقْبَلُ يُخَوِّمِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (الحديد/ 17)، فينزل عليها الماء بعد جفافٍ طويل، فتحضر في هزّة العشب، ونضارة الشجر، وزهو الورد.. وهكذا يوحى ذلك إلى الناس بأنَّ الله يحيي العقول الميتة بفعل الجهل بالمعرفة، والقلوب الميتة بفعل الضلال عن الهدى والإيمان. (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ اللَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الحديد/ 17)، عندما تفكرون في مضمونها من أجل الانفتاح على الحقِّ كلّهُ في مواقفه في حياة الناس، كما هو في مواقع الحقيقة البارزة في قدرة الله في الأرض، فينفتح للعقل أكثر من نافذة على المعرفة الواسعة التي تضيء الروح والوجدان والحياة. (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) (الحديد/ 16)، قد

يكون هذا الحديث للمؤمنين الذين يستعجلهم □ للحصول على حالة الخشوع القلبي الذي يجعل كيان المؤمن كلاًه خاشعاً له، في اهتزاز الشعور بالعظمة والنزعة في إحياءاته بالمحبة من جهة، والخوف من جهة أخرى، حيث يمتزجان في كل مشاعره وأحاسيسه وأفكاره، ليجعلا منه الإنسان المنفتح على □ الخاص له.

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ، بما فيه من عبرٍ وعظاتٍ ووصايا ونصائح، ومفاهيم وأحكام، وترغيب وترهيب، وتعداد لمواقع عظمة □ في الكون، ولامتداد قدرته في خلقه، وهيمنته على الأمر كلاًه، (عَلَى جَدَلٍ) بكل ما يمثله الجبل من جمود الإحساس لغياب الحياة في داخله، ومن صلابة الصخر في صخوره الفاسية، ومن ضخامة الحجم الذي يطل به على الأفق الواسع ليحجب الكثير منه في امتداد النظر، ممّا لا تستطيع الرياح أن تهزّ جبروته، ولا الزلازل أن تسقط قمته، ولكن هناك شيئاً يختلف عن عصف الرياح وخطورة الزلازل، يمكن أن يصدعه فيتشقق، ويثير الإحساس فيه فيخشع، وهو القرآن النازل من □ عليه لو قدر أن ينزله □ عليه كما أنزله على الإنسان، (لَرَآيَتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ □)، لأن طبيعة معانيه تؤثر في العمق منه، بالرغم من الصلابة والضخامة والجمود الذاتي فيه، وإذا كانت هذه هي الحال مع الجبل، فكيف يجب أن يتمثله الإنسان المملوء وعباً وشعوراً في انفعاله به في ما يعيشه من خشية □، (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَرُّهَا لِنَلِّنَّ أَصْفَادَهُمْ) في ما يستهدفه القرآن من أسلوب الأمثال الذي يعني تشبيه الأشياء ببعضها البعض، لإيضاح الفكرة، (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)، ليكتشفوا من خلال الفكر شيئاً جديداً في المعرفة، وأفقاً واسعاً في وعي العقل والشعور.